رسالة أم

قصة : جيري مارلك

ترجمة : أحمد مصطفى النمر

ذات يوم وصلتني هذه الرسالة من سيدة مجهولة ، لاتربطني بها سابق معرفة ، وطلبت مني نشرها ، وهانذا أنفذ رغبتها :

سيدى ..

أنا لست الا مجرد امرأة عادية ، كسائر النساء ، وأقطن فى شقة متواضعة فى بيت عادى ، ولا أتميز عن غيرى بشىء .

ولقد عشت طوال حياتى ، مغمورة ، لم أتعرف على أحد ، كما لم يهتم بى أحد ، ولا تطل نافذة مسكنى الا على زقاق مظلم ، ولذا فلا أرى من خلال الستارة البالية المسدلة عليها الا حائط المسكن المقابل ، ولم أكن فى حاجة الى منظر أجمل ، لاننى دائمة النظر الى الماضى ، والاهتمام به .

وكان سكان المنزل لايروننى الا مرة ، أو مرتين فى اليوم ، مرة حين أخرج من مسكنى ، وأنا احمل حقيبة الشراء السوداء ، وأخرى حين أعود بعد برهة قصيرة ٠

وكنت أسير بخطى وئيدة ، لانى كنت ضعيفة القلب ، وأتنفس بصعوبة ، فهل فكرت فى أن كثيرات من النساء الوحيدات مثلى لايهتم بهن أحد فى غدو أو رواح ؟ ان الحياة المحيطة بهن لم يعد لديها ما نمنحه أو نقدمه لأمثالهن ٠

وليست الأضواء ، والانوار المتلألئة فى واجهات المحال التجارية مضاءة لهن ، لانه ما من شخص يقف لهن فى الانتظار ، أو يرحب بمقدمهن ، ومع هذا تسير حياتهن ، وكأنهن يعشن على هامش الحياة ، ولا ينعمن منها الا بمجرد ظلال قليلة ، ويسرن وكأنهن أشباح تدب وتسعى هنا وهناك ، ويعشن فى الظلام ، بعيدا عن الأضواء ٠

وبالرغم من كل ذلك لايقل اهتمامهن عن غيرهن بمجريات الامور ، فهن يتتبعن الأحداث ، ويحاولن تعرف كل ما يحدث ، وكأنهن أحياء ، ينعمن بسائر حياة البشر ، ويتمتعن بما فى هذا العالم من مباهج ومسرات ، أو هكذا يخيل اليهن ، ولكن هناك آلام تنطوى عليها النفوس ، وأحزان لايكترث لها أحد غير صاحبها ، ولا يحاول أحد تخفيفها ، فالحياة المهدمة لا تثير اهتمام الغير من الناس ٠٠

وكثيرا ما سمعت الناس يقولون عنى ، لقد خرجت العجوز التى تسكن الطابق الارضى لشراء حاجياتها ، أو انها قد عادت من جولتها ٠

ويوما ما سمعت من البوابة مايفيد استنكارها لذلك ، بعد أن عرفت حقيقة سنى ، اذ قالت لى لماذا يصفونك بالعجوز ، مع انك لازلت فى ميعة الصبا ؟ ان هو الا شعرك الابيض ، الذى فعل هذا ٠

ولكن لم تكن تلك هى الحقيقة اذ كانت تمر بى أوقات أشعر فيها أنى تقدمت فى السن آلاف السنين ، وانى لم أعد فى سن الشباب ، وذلك هو ما عبرت عنه للبوابة التى ضحكت مستنكرة قولى عندما سمعته منى ، وأبدت لى أسفها ٠

ولكن لماذا تأسف على تلك المرأة الطيبة القلب ، فحياتى حينذاك لم تكن تدعو الى الاسف ، كما هى الآن ، فهناك أوقات كانت حياتى تمتلىء فيها بالبهجة والسرور ، وكنت أنا وزوجى لانعانى الفقر ، وسعدنا كثيرا حين أنجبنا طفلا ٠

وهكذا ترى أن قصتى لاتحوى أمورا غريبة ، أو تختلف عن حياة غيرى من الناس ، فكثيرات كانت حياتهن مثلى ، ولكنى أخشى أن يظن القارىء أن قصتى ليست من الاثارة بحيث تستحق الاثارة ، وكل ما أرجوه أن يصبر قليلا حتى يرى النهاية ٠

لقد نشبت الحرب ، وهذا قد لايكون أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لى ٠٠ ولكن كل فرد قاس من ويلاتها ولا يخفى على القارىء ما تعنيه كلمة حرب

بكل مافيها من مآس، وأهوال ويكفى أن تذكر تلك الـــكلمة ، أو تســـمعها حتى يقترن بها الخراب والدمار والحرمان والخوف ٠

ولكنها مجرد كلمة من ثلاثة حروف ، وفى هذه الحروف الثلاثة يعلق شرف الانتصار ، أو عار الهزيمة ، ولعمرى انها لكلمة ثقيلة على الأســماع رغم أنها قد تمر بنا ، وتنطقها أفواهنا فى ســـهولة ويسر ، وحين تتحقق وتقع ، يندلع لهيبها فيأتى على الاخضر واليابس ، وتنطلق أصوات المدافع ، وتنبعث رائحة البارود ، وعندها نجد أن ما تنطوى عليه هذه الكلمة من ليونة يخالف الواقع والحقيقة ٠

وقد حارب زوجى ، واشترك فى الحرب ، ولكن لا بالسلاح ، فقد كان ذلك مستحيلا عليه بل بالقاء القبض عليه لارتيابهم فى نشاطه المعادى ، واتهامه بالتجسس ، وهكذا تركت وحيدة أنا وطفلى ٠

ولا يغيب عن ذهن القارىء شيئان هما الفزع والرعب من كلمة « حرب » ذاتها وكل ما يقترن بها من متاعب ، وما يصاحبها من أهوال ، فهنـــاك أشياء تفقد مكانها فى الحياة ، وأرواح تزهق ، ومـــوت يحلق فوق الرؤوس ، وقد يكون كل ذلك لاشىء بجانب رؤيتك لطفلك الهادىء الوديع الراقد فى مهـده ـمستسلما ، وقد أطبق راحتى يديه فى سكون ، وكأنه قد أطبقهما على حلم جميل يخشى أن يفلت منه ، أو هكذا تمر به الحياة ، وكأنها حلم رائع ، فلا يعرف مايدور حوله ، ولا يفطن الى شىء ، حتى ولا الى تلك الكلمة ذات الحروف الثلاثة كلمة «حرب» التى قد تذهب فى غمضة عين بذلك الحلم الجميـــل ، وبالطفل وبكل شىء ٠

وما أروع ما ترى ، حين تشهد طفلا يلهو ويلعب فى ممرات حديقة ما يدب بقدميه ويطيح بيديه ، وينبعث من فمه صوت يمثل سير القـــاطرة ، أو يقلد سيارة ، وهو سعيد فى حياته بصخبه ومرحه ، وقد أرسلت الشـمس أشعتها الذهبية ، وبعثت الحياة فى الكائنات ، وتفتحت الأزهار على أعوادها ودانت قطوف الاشجار بثمارها ، وتنظر اليها فتشعر بالحياة والأمل ، ثم ترى كل ذلك قد تغير فجأة وأصبحت الحديقة وممراتها مخبأ للغـارات الجوية ٠٠ واختفت الوجوه الباسمة المستبشرة ، وحل مكانها وجوه كادحة ، قاتمة يتصبب منها العرق ، واكفهر لونها من الحفر ، والكد ، ولا ترتفع الأعين عن أرض الآباء والأجداد ، الا لالتقاط الانفاس ، ثم يعاودون العمل من جديد ٠

وهكذا تبدو لك الحياة هناك وكأنها قافلة تسير ، أو قاطرة تنهب الارض أو أسطولا يمخر عباب الماء ، والناس فى سباق مع الزمن ، يغامرون بكل شىء وكل ذلك لمجرد اطلاق كلمة من ثلاثة حروف هى التى أحدثت كل ذلك التحول حقا انه لعالم ملىء بالعجائب ٠

ولا تعجب حين ترى ذلك الطفل ، الذى امتطى صهوة حصانه الخشبى ، وأخذ يهز نفسه فوقه ، ليحرك جسمه ، ويهز ساقيه وذراعيه ، ويستحثه على السير والاسراع ، ويهيب به ، ويلهبه بسوطه الصغير فى يده ، الكبير فى نظره

وقد يطيب لك ذلك المنظر ، حتى ولو رأيت رأس ذلك الحصان قد كسر ، فان الطفل لا يتركه ، ولا يرحمه ٠

وقد تبتسم لذلك المنظر ولكن ذلك الطفل نفسه ، لايعتقد انه مجرد طفل صغير يلهو بدميته ، بل هو فارس خطير ، وهو أيضا ليس ضعيفا ، بل قويا مغوارا يستهين بالعقبات ، ولا يخشى السقوط ، وتلك أيضا من قبيل المغامرة التى يقوم بها الطفل ، والتى تنشأ معه وتنمو معه ٠

وقد لاينتهى ركوب الطفل ، ولا تقف سيطرته عند حد ، فهو سادر فى طريقه ، ولا تعرف الهزيمة طريقها اليه ، وانه لابد سيقهر الأعداء ٠

وبعدها قد يلمح ذلك الطفل نفسه عصفورا ، يستهويه جمال ريشه ، وتجتذبه زقزقته ، وسرعان ما يسقط الحصان على الارض ، ويتخلى عنه راكبه مندفعا فى أثر العصفور ، محاولا الامساك به ، واذا بالحصان الذى كان لايكف عن الحركة قد أصبح كتلة هامدة خشبية صماء ، ملقاة على الارض مهملة لاقيمة لها ٠

وقد تمر برهة قصيرة يصل بعدها صوت العصفور ، الى أسماع الطفل ، فيتجه نحوه ، ويراه قد دخل الى غرفة مقفلة النوافذ ، فيلصق أنفه وفمه بزجاجها ، منعم بالنظر الى ذلك العصفور ، عله يقبل عليه حين يفطن الى وجوده ولكنه يعجب حين يراه يطير ، ويتخبط فى جنبات الحجرة ، وكأنه يفر منه ، ولكنه يحاول الافلات من سجنه الصغير ٠

وقد يعجب الطفل فى نفس الوقت ، حين يراه يقبع أحيانا على حافة النافذة ، أو على أحد محتوياتها ، ويهز ذيله ، ويتساءل الطفل حينذاك ، هل الطائر سعيد وقانع بحالته ، أم أنه حائر ، يفكر فى طريقة للافلات ، ويعينه اهتزاز ذيله على التفكير ، وقد يدهش الطفل حين يسمع صوت العصفور ٠٠ ويحاول فهم ما يقول ، ولكنه لايفهم شيئا ، ولا يملك غير العجب وعندها يقول لنفسه ، ترى بأى لغة يتحدث ذلك الطائر ٠

وأخيرا قد يستولى على الطفل شبه يأس من العصفور ،ويسترعى نظره بائع البالون حين يمر به ، وقد شرع ذراعه بمجموعة منها ، فى ألوانها الزاهية الجذابة ، وعندها يفكر الطفل بعقله الصغير ، لماذا لا يشترى منها واحدا يطيره فى السماء وتملك تلك الفكرة على الطفل مشاعره ، فيسرع الى مربيته لتشترى له ما يريد ٠ وبعدها يبدأ فى اللعب بالبالون ، وهو سعيد قانع ، ويفرح حين يراها ترتفع فى السماء ، ثم تعود حين يجذبها ، وأخيرا تصطدم بشىء فتنفجر وتنتهى ، وينتهى معها كل شىء وكأنها فقاعة ماء ، وهكذا الحياة قد تنتهى فى أى لحظة ويطوى الكائن الحى ، وينتهى بزواله كل شىء ، وكأنه لا شىء ٠

ومع هذا ترى الكبار ، يمرون بلافتات كتب عليها كلمة حرب ، ومنهم من لايعيرها التفاتا ، ومنهم من يجلس ليندد بمساوىء الحرب ، ويعدد ويلاتها ولكنه لا يذكر من آثارها غير الحياة والموت ، ويتجاهل ما عدا ذلك ٠

ثم انظر الى ذلك الطفل الوديع الهادىء الذى أمسك فى يده بكتاب أنيق

مصور ، وهو يمر بأصبعه الصغير على صفحاته ، يقلبها واحدة بعد أخرى ·· ويطوى تلك الصفحات المصورة المطبوعة ·

والمنظر فى جملته لايعدو أصبع الطفل على صفحات الكتاب ، وقد علقت عيناه بما فيها من صور جميلة جذابة ، حيث يرى أناسا فى عربات أو سيارات وسائق قد أمسك بالسوط فى يده يلهب به أهور الخيل التى تجر العربة ، ليستحثها على الاسراع ·

وتلك صورة عامل ينظف المداخن ، وقد تسلق سلمه الطويل ، ويبدأ الطفل فى عد درجات ذلك السلم ، «واحد ، اثنين ، ثلاثة» ثم يرفع عينيه الصغيرتين عن تلك الصورة ، ويتجه بها الى والدته ، وفى براءة الاطفال يسألها أين ينام منظف المداخن فى الليل ، ثم يسألها من الذى وضع النجوم فى السماء وهل الشمس أكبر من طبق طعامى ، الى غير ذلك من الأسئلة المحيرة ·

حقا أن هناك جمال كامن فى الاطفال ، وأجمل ماتراهم حين يتأهبون للنوم ، اذ تحيطهم الاحلام السعيدة ، ويبدأ النعاس يداعب أجفانهم ، ويتخيلون أنهم نائمون على فراش وثير من ريش النعام ، ثم يبدأون فى غمض أجفانهم وقد ارتسمت بسمة رقيقة على شفاههم ، وعندما يجرى الحصان الخشبى ، ويرتفع البالون ، وينخفض ، ويزقزق العصفور الصغير وتبدو لهم كل تلك الأشياء ، وكأنها قد أصبحت أشياء حقيقية ، وقد بعثت فيها الحياة من جديد وأخذت تحلق فى سماء أحلامه ، وتعيش معه فى دنيا أحلامه الجميلة التى لاتنتهى ·

ولعلك قد تعجب يا سيدى ، لم أرهقك بذكر كل تلك الاشياء ، وذلك لانى رأيت ابنى وقد اختطفه الموت منى ، من أجل كلمة واحدة ، هى «حرب»

نعم لقد رأيته بنفسى ، وهو يغمض عينيه الى الأبد ، ونفس البسمة الرقيقة مرتسمة على شفتيه وكان فى وهدته الاخيرة كأنه يعجب من كل ما حوله وكأنه وهو قابض راحتيه ، قد أطبقهما على زملائه من الاطفال الذين لاقاهم فى العالم الآخر ، وكونوا موكبا رائعا ، وقد أمسك كلا منهم بيد الآخر ، وهم فى وداعتهم ، ورقة أجسامهم واستسلامهم كأنهم ملائكة أبرار ·

وعندما همست فى أذنه ، لاتفزع ياطفلى العزيز حين تسمعنى أصرخ جزعة لفراقك ، انه لاشىء ، سوى صوتى ، وهو يهتز ، ويتذبذب فى الهواء ، وسأبكى كثيرا ، ولكنى بعدها سأكفكف الدمع ، وبعدها لاشىء ، يبقى معى ، غير ذكرى عزيزة على نفسى ، هى ذكراك أنت يابنى ، والجزع لفراقك والجزع لايعرف البكاء ·

وحين أصبحت وحيدة فى هذا العالم ، سرت فى طريق موحش مقفر ، ليس به الا بقايا عشب جاف ، وينبعث من نفسى شعور بالكآبة والحزن ، وبجانب ذلك الطريق لمحت خطا حديديا لسير القطارات ، ولم أر فى ذلك الطريق الجاف الا آثار أقدام الاطفال الصغيرة ، انطبعت على الارض ، وبدا بعضها واضحا ، والبعض قد طمسته آثار أقدام أخرى ، وتطلعت الى السماء

فوجدتها قاتمة مكفهرة ، لاتدل على شيء ، ونظرت الى الاشجار فوجدتها جافة الأوراق ساكنة ، لاتحرك الريح غصنا منها ٠

لقد كان كل شيء هادئا ساكنا ، وما أقسى السكون الذى يسبق العاصفة وما أشد ما شعرت به من رعب ، لانى شعرت بالحياة بكماء ، صماء ، قاتمة ، مقفرة لاتنبض بالحياة ، فلا حركة هناك الا موكب أولئك الاطفال الصغار الذين شهدوا كثيرا من الويلات ٠

ولعل ذلك الطريق سار فيه أولئك الاطفال ، لانهم كانوا غير عالمين بما يدور حولهم ، وهكذا اندفعوا فى موكبهم الطويل ، كما لو كانوا فى طريق عودتهم الى منازلهم ، بعد نهاية يوم دراسى ، وقد أمسك كل منهم بيد الآخر فى هدوء واطمئنان ، ولم يسمع منهم الا صوت وقع أقدامهم ٠٠ ولكنهم كانوا فى طريقهم الى الفناء ، الى الموت ، وهكذا ذهبوا ولم يبق منهم أحد ، ولم يبق منهم غير الذكرى تمر بخيال الآباء والامهات ، ووقع أقدامهم يتردد فى فضاء لانهائى ٠

ولا عجب فقد مر بخاطرى ، أنا وغيرى من الامهات الحزينات أطياف وأطياف لاولئك الاطفال ، حين تكدست مع جمع غيرى فى سيارة نقل كبيرة ، حشرنا فيها الى طريق طويل ، أطلقوا عليه معسكرات اللاجئين ، لنبعد عن مكان المعركة ٠

وكانت رحلة طويلة شاقة ، متعبة ، أرهقت الكثيرات منا،فمات البعض وأغمى على البعض ، وقاسينا الأمرين من الجوع والعطش ، ونحن فى طريقنا الى الأمان كما قالوا لنا ٠

وكان أهمما أثر فى نفوسنا ، هو الحديث عن أطفالنا الذين افتقدناهم ، وخلفناهم وراءنا ، وبعثوا بهم الى مكان بعيد فى نهاية طريق طويل ، لن يعودوا منه الى الأبد ، فلماذا أخذوهم منا ، وفرقوا بيننا وبينهم ٠٠ لماذا ٠ ؟ انها نفس الأحرف الثلاث «حرب» ٠

وكان التشكك هو أهم ما يقض مضاجعنا ، لعدم اطمئناننا على مستقبلنا أو مستقبل أطفالنا ، فقد أخذوا منا أطفالنا بحجة صيانتهم ، والحرص عليهم وقالوا للأمهات انهم فى مكان أمين ، ولكن ترى ما الذى آل اليه أمر أولئك الاطفال ، هل زجوا بهم فى بعض ، الملاجىء ، وهل أشفقوا عليهم ، أم عاملوهم بقسوة ، وتلك حقا كانت أفكارا مزعجة ، ولكنها كانت لاتخلو من بعض الاطمئنان ، فكان هناك بعض الامل فى الابقاء على أولئك الاطفال أحياء ، والا كانت الطامة الكبرى اذا لقوا حتفهم ٠

وحينئذ مر موكب الاطفال بخط السكة الحديد ، وغيره فى هدوء الى حيث كان القطار منتظرا منذ وقت طويل ، فحشروا فيه حشرا ، حيث حملهم الى أماكن ينبعث الدخان من مداخنها الكثيرة ٠

وتطلعت أنا وغيرى الى أولئك الاطفال وهم فى القطار ، ولمحت بعضهم فى نوافذه ، ومن العجيب انى لمحت بينهم طفلى أنا ، فصرخت هاتفة باسمه ،

وتخيلته يلعب حولى ، وحين أفقت من اغمائى شعرت بيد احدى زميلاتى وهى تربت على وجنتى لتنبهنى ، وتعيدنى الى حالتى الاولى ، وحين أخذت أردد اسم ابنى ، وأشير تجاه القطار كانوا يجارونني ، ويفعلون مثلى ، وقد ارتسم الوجوم على وجوههن ، وأخيرا تمددت على أرض السيارة بينما أخذ البعض يدلك لى راحتى ، وأطرافى أو هكذا خيل لى رغم انى لا أذكر شيئا من ذلك مطلقا ، بل لا أذكر أى شىء ، وسمعت بعد هذا أن الاوامر قد صدرت الى السيارة بالتحرك سريعا ، وأن نحيب أولئك الامهات كان عاليا لفراق أطفـــالهن ، ولم تخفت أصواتهن ولم تطغ عليها أصوات طلقات الرصاص والمدافع التى كانت تطلق بشدة حينذاك ٠

ثم بدأت النساء ، كل تواسى الاخرى لان هناك شيئا واحدا لايغنى ولا يفقد ،ويظل حيا باقيا على الدوام ، وذلك الشىء هو الأمل ولذلك أصبحت كل واحدة تقنع نفسها ، بأن أولئك الاطفال ، لم يعودوا أطفالهن مطلقا ٠

ومن المؤكد أنى لم أستطع تمييز طفلى أنا ، لانه لاشك لم يكن بين أولئك الاطفال ، ولن تحدث مطلقا ، مثل تلك المعجزة الخارقة لانى كنت أعرف مكان طفلى ٠ ٠

وحدا الأمل بالكثيرات الى الاعتقاد بأن أولئك الاطفال ليسوا أطفالهن ، لأنهم لابد سيحسنون معاملة أطفالهن ، ويضعونهم فى أحد الملاجىء ، ولكنهم لن يذهبوا بهم الى الموت ويعرضونهم للهلاك ٠

وأخذ النساء يرددن ، كلا انهم ليسوا أطفالنا ، الذين شهدناهم ولعلهم أطفال أناس غيرنا ، ثم أخذن يرددن ، ولكن كيف يكونون أطفال أناس غيرنا وقد تعلقت قلوبنا بهم حين رأيناهم ٠

وهكذا سار طفلى فى موكب طويل مثل ذلك الموكب تماما ، نعم انه طفلى المتورد الوجنتين ، الذى سألنى يوما ما عن النجوم ، ومكان نومها والذى نعمت ببسمته حينذاك ، وانا أربت على تلك الوجنات مداعبة ملاطفة ٠

ومع هذا اذا لم يكن هو نفس طفـــلى ، هو الذى رأيته فى ذلك الموكب الطويل ، فلا شك انه طفل آخر تركته أمه ٠

وهكذا ساوى الموت بين الاطفال ، فقادهم جميعا فى موكب الفناء ، أولئك الاطفال الذين يدفعون أصابع أقدامهم فى جواربهم ، ليحدثوا بها خروقا نرتقها نحن فيما بعد ، بعد أن يلعبوا هم ، ويلهوا ويفرحوا حين تبرز أصابعهم منها ، أولئك الاطفال الذين يفركون أنوفهم بأصابعهم حتى تحمر ، وتصبح فى مثل لون الجزر ، وينظرون اليها فى المرآة ويفرحون بمنظرها ، وهى تنعكس أمامهم فى المرآة أولئك الاطفال الذين يسيرون ، ونسمات الربيع تداعب خصـــلات شعرهم الناعم كالحرير ، وفى مثل خيوط الذهب الرقيقة فتموجها وتنســدل على جباههم فنرفعها نحن الامهات فى رفق وحنان ٠

ولكن هل تسعفنى الكلمات لأصور لك الفواجع التى أنزلتها نبأ كلمــة

من ثلاثة حروف «حرب» لعله قد يبدو سهلا أن يصور القلم ، ويسطر فى سهولة مشاعر الامهات ، ولكن ياسيدى أن الحقيقة أفظع من الخيال ٠

والأقسى من كل ذلك انى بقيت على قيد الحياة وحيدة ، امرأة بلا قلب ، لان قلبى قد مات منذ زمن طويل ولعلى لم أمت ، لأن الموت قد خجل من مواجهتى أو حتى مجرد النظر فى وجهى ، ولذا فقد بقيت على قيد الحياة ، وعدت ثانية ولكن ابنى ، ابنى لم يعد ٠

وقد يتراءى لك ياسيدى أن قصتى لاتعدو أنى رأيت ابنى يلاقى نهايته ، وأن تلك هى الحال فى حالة الحرب ، كما قال بعض الناس ، فى اجتماع ما ، حيث قال معلقا على ويلات الحرب وآثارها : «حتى الاطفال يحاربون» ، وليس هذا من الحقيقة فى شىء فالاطفال لا يحاربون ، ولكنهم يقاسون فقط ٠٠ انهم الضحايا ، والقرابين التى تقدم على مذبح الحرب فقد لاتجد فى ميدان الحرب الا الجنود ، أو محاربون قلائل ، ولكن هناك ضحايا يتعرضون لمآسى لانهاية لهـا ٠

ولكن لماذا أقص عليك كل هذا ؟ ماهذا الا لانى أريدك أن تكتب هـذه القصة الدامية بيراع من ضلوع أطفال ومداد من دماء قلوبنا ، وقد تعتذر عن نشرها بحجة أن معظم الناس يفضلون قراءة القصص المسلية المرحة ، التى تتحدث عن الحب والجمال ، ولكن قصتى تتحدث أيضـا عن حب ، وهو الحب الخالد ، حب الامهات لأطفالهن وهو حب راسخ متين ، لاحب زائف ينطوى على الغش والخداع ، أو قد يكون من محض خيال الكاتب نفسه ، ولا وجود له فى عالم الحقيقة ٠

وقد يخيل لك ، انى فزعة من كلمة حرب ، ولكنى لم يبق فى حياتى شىء أخشى أن تأتى عليه الحرب بعد أن ذهب زوجى وطفلى ، وذهب بذهابهما كل شىء ، وأصبحت خالية الوفاض ، اذ لم أدخر شيئا قد تسلبه منى الحرب ٠

ولكن هناك نساء غيرى ، لهن أطفال لا زلن أحياء ، ويبتسمون لهم حين يفيقون من نومهم ، مثلما كنت أفعل مع ابنى تماما ولديهم فى حجراتهم الصغيرة نفس اللعب ، التى كانت عند ابنى ، ونفس الشعر والوجنات التى يداعبهـا النسيم العليل ، كما تتراءى لهم نفس الاحلام التى كان يراها ابنى ٠

من أجل هؤلاء أرجو أن تكتب ، وقل لهم نيابة عنى انى لازلت أرقب ، وأشدد عليهم فى القول أن يرقبوا مثلى ، ولكن لمن أريدك أن تكتب وتقول ٠

انى أريدك أن تقول وتكتب الى أولئك الذين يشعلون نار الحروب ٠٠ ويشحذون أسلحتهم استعداداً لهـا فهؤلاء يجب أن تذكرهم ، بأن صرخات الاطفال أقوى من طلقات المدافع ، وان أنات الجرحى أشد من وأقسى من أزيز الطائرات التى يشنون بها الغارات ٠

أريدك أن تذكر صانعى الحروب الذين يعتدون على الشعوب الوادعة المسالمة ، وقد تملكهم الجشع ، وأعمتهم القوة الغاشمة ، بأن يفكروا قليلا قبل أن يخطوا كلمة حرب ٠

وقل لهم انى حين أذرع ممرات الحديقة العامة ، وأرى الأطفال وهم يلهون ويلعبون هناك بين الزهرات اليانعات ، لاأرى أولئك الأطفال فى الحقيقة ، بل أرى مكانهم ، أولئك الأطفال ، الذين لم يقدر لهم ان يعيشوا ليشهدوا نهاية الحرب ، بل انى أرى مواكب من مخلوقات عجيبة ، قد حكم عليهم بالموت من شرذمة طاغية مستبدة وقد سولت لهم أنفسهم أمرا ، فأعلنوا حربا • فى قبرص وفى فيتنام الشمالية ، وقد شردوا من قبل ملايين الأطفال فى فلسطين ، وهاهم اليوم ، يعيدون الكرة ، ويتبعون نفس الطريقة • وتآمروا على أولئك الأطفال الصغار الذين لازالوا يتساءلون عن الشمس ، وهل هى فى حجم أطباق طعامهم ،

وهأنا أسمع اليوم ، نفس الكلمة •• حرب • حرب انا الأم التى جاوز عمرها الألف عام . وهدمتها آلاف الأحزان ، أم فقدت زوجها ، وثكلت طفها • ولكنه لم يكن طفلا واحدا ذاك الذى فقدته ، ولا رجلا واحدا ، بل قد يستعصى عليك أن تحصى قبور أبنائى ، الذين فقدتهم لأن جميع من ماتوا ضحية كلمة حرب •• كانوا أبنائى ، ولم يستطع أحد أن يعيد الى ابنى من بينهم ، ليحتضن بذراعيه الصغيرتين •

لا • لا ياسيدى ، يجب الا يكون هناك حرب فلا زال وقع خطوات الأطفال الذين ذهبوا ، يرن فى أذنى ، لينبهنى الى الخطر المرتقب ، ويصيح فى وجهى ، قولى لصانعى الحرب أن يوقفوا الحرب ، يجب الا تكون هناك حرب أخرى ، فى أى مكان •

وقد يكون اسمى ، مارى ، أو كاتيا ، أو فاطمة ، أو أى شىء ، وقد تكون لى آلاف الأسماء ، ولكن أم أبدية لجميع الأطفال •

وانهم ليتحدثون عن الحرب ، ولكن أصم أذنى حتى لا أسمع تلك الكلمة البغيضة ، وأغمض عين كى لا يقع نظرى عليها فى الصحف •

وأفضل أن أسمع بدلها أزيز عربات الأطفال ، وصراخ الأطفال • وصخبهم ، وهم مقبلون •

وهأنا أمد ذراعى ، بأقصى ما أستطيع ، فانظر الى ، انى أمدها ، لا لأحتضن طفلى ، بل لأبعد عنه ذلك الشبح المخيف شبح الحرب الذى يهددهم ، وقدلايكون هو طفلى ، ولكن جميع الأطفال أطفالى •

وهأنذا أعيد ذراعى ثانية الى جانبى ، ثم أمدهما ثانية بأقصى ما استطيع ، ولكنى فى هذه المرة ، لن احتضن طفلا من أطفالى ، الذين لاعداد لهم ، بل لاطبق بها على أعناق أولئك الذين يتحدثون عن الحرب ، ويفكرون فى اشعال نارها ، ساطبقها على أعناقهم بقوة وعنف حتى أزهق أرواحهم قبل أن يزهقوا أرواح أطفالى •